أدب الفقهاء

- ١٥ -

كلمة ختامية

الآن وقد أثبتنا بما لامزيد عليه من البيان والتبيين ، والأمثلة والشواهد أن أدب الفقهاء أدب حيّ مميّز ، لايقصر عن أدب غيرهم ممن ليسوا بفقهاء وان التهمة التي توجّه إليه بالضعف والتخلف حتى جعلته مثلاً مضروباً لكل أدب بارد سخيف ، هي تهمة باطلة فيها كثير من التجني والظلم لهذا الأدب والمتجين له ، نريد أن نقول في كلمة ختامية لهذا البحث ، أننا لاننفي أن بعض الفقهاء ليس لهم من الأدب حظ ولا نصيب ، وأنهم حين يتعاطَوْن النظم يتكلّفون ما ليس من سجيتهم ، فيأتي نظمهم فجّاً ركيكاً .. ولكن يجب أن لانسى أن في أدب غيرهم من الفُسولة والرداءة مايغطي على أدب الفقهاء الذين يُقرُّون بأنهم متطفلون على موائد الأدباء ، بخلاف مَن يقول أنا به زعيم . وكلّنا نعلم أن شواهد علماء البلاغة التي يوردونها مثالاً للتنافر والغرابة ومخالفة القياس وضعف التأليف والتعقيد وغير ذلك من عيوب اللفظ والمعنى ، هي من كلام كبار الشعراء المعترف لهم بالسبق في مضمار صناعة النظم ، وليست من كلام الفقهاء ، وكذلك شواهد علمَي العروض والقافية على مايعتري النظم من اختلال وعدم انسجام بما يدخله من زحافات قبيحة وعلل مُستكرهَة ، هي من كلام أعلام الشعر وفصحاء العرب جاهليين وإسلاميين ، فالفقهاء ونعني بهم العلماء على العموم ، إذا لم ينظموا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على الطبع والسجية ، يقعُون في مثل ماوقع فيه أئمة الصناعة وأمراء الكلام ، وهم بحكم علمهم بما يُترخَّص فيه من مخالفة للقواعد ومجاوزة للقيود يكثر منهم التساهل ولا سيما عندما يعتمدون التقطيع ويتحاكمون إلى أجزاء التفعيلة فيجيء نظمهم قَلِقاً مضطرباً ، ولكنهم لايرون بذلك بأساً ، لأنه جار على المسطرة كما يقولون . وقد لاحظتُ غير ما مرة على بعض النظّامين ما في كلامهم من الكسر والسقوط ، فكانوا يلجأون إلى التقطيع ويحتجون بأنهم على سَوِية العروض .

وهذا فيما يكون من الشكل غيرَ مُخِل بالمحتوى ، أما ما اشتمل على الخَلَّتين واعتَورتْه العلةُ من الناحيتين ، فهو مما لا كلام عليه ، وصاحبُه حريٌّ بأن لايعد في الفقهاء ولا في الأدباء ، ومع ذلك ففي كلام فحول الشعراء مايذهب بعضُه بكل مافي كلام هؤلاء من مآخذ ومعايب . ولو ذهبنا نضرب الأمثال ونتخيَّر « النماذج » مما انتُقِد على متقدمي الشعراء فأحرى متأخريهم لضاق بنا المجال عن استيعاب ذلك ، ويكفينا أن نعطي مثالا واحداً ، وهو هذان البيتان من قول بشار بن بُرد زعيم الشعراء المولّدين :

إنما عَظْم سُلَيْمى قصَب ... قصَبُ السكّر لا عظْمُ الجمل

وإذا أُدنيتَ منها بصَلا ... غلب المسكُ على ريح البصل

فأي شعر لفقيه انحطّ إلى هذا الدرك من السخف والغثاثة حتى تُضربَ الأمثال بشعر الفقهاء ويُنسى هذا « النموذج » من شعر الأدباء ؟ فاذا قيل إن هذا وشبهه قليل في كلام الشعراء المطبوعين ، قلنا إنه كذلك قليل في كلام الفقهاء أو طبقة قليلة منهم على الأصح ، مع العلم بأن الشعر عندهم إنما هو هواية ، وليس حرفة ، وهذا القليل من المحترفين المختصين لايقال له قليل ، فكان الأولى أن « يُنوَّه » به كما « يُنوَّه » بقليلِ القِلَّة من الفقهاء الذي جاء على مثاله أو قريباً منه ان تسامحنا في المقارنة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبَسْطُ القضية بمزيد من الوضوح أن أدب الفقهاء الحقيقي هو ماعرضناه وتعرَّضنا له بالنقد والتحليل في الأبواب المتقدمة والتراجم السابقة ، وما لم يكن على غراره فهو من عمل ضعاف الفقهاء ، وشيء قليل بالنسبة إلى الكثير الطيب الذي أوردنا منه ما أوردنا ، فإطلاقُ الكلام إلى حدّ إرسال المثَل بضعف أدب الفقهاء لا يُوافق الحقيقة ، وفيه تحامل كبير على هذه الطبقة من رجال الفكر وحملة القلم ، ويُنتَج عنه صرفُ النظر عن كثير من الروائع التي تفيد أدبنا غِنىً وثروة كما بيَّناه فيما سلف ، ولو كان هناك حق وإنصاف لما حُمِّل الإحسانُ الكثير في إنتاج هذه الطبقة الشِّعْري على الإساءة القليلة التي وقعت منهم فيه ، مثلما عليه الحال مع الأدباء والشعراء الكبار على الأقل ، وهم الذين كان الواجب أن لا تُغتفر زلّتهم ، لأنهم محل القدوة في هذا الشأن .

وجانب آخر من القضية هو أن بعض الفقهاء كثيراً ما يتساهلون في أنظامهم العلمية لقصدهم إلى عموم الفائدة وتقريب المعنى إلى الطلاب ، وهذا ليس من الحق أن تُؤخَذ به جميع أفراد هذه الطبقة وَيعمُّها حُكمُه ، خصوصاً وان الكثير منهم كان على خلاف ذلك ؛ ينظم الفوائد العلمية ويُحصِّل قواعد الفنون في شعر بليغ مُحكَم على نحو ما مثَّلناه في باب النظم التعليمي حتى قيل في منظومات بعضهم في الكيمياء القديمة إنها إن لم تفدك العلم أفادتك الأدب .

وقد نبه على هذه الظاهرة العلامة الأديب أبو العباس أحمد المقري صاحب نفح الطيب ، في كتابه فتْح المتعال في مدح النعال ، لمَّا أورد أبياتاً من ألفية الحافظ زين الدين العراقي في السيرة النبوية ، تتعلق بوصف النعل الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، ولاحَظ ما فيها من دَرَك عليه صناعةً ، وبعد أن التمس المخرج لذلك ، قال معتذراً عنه : « على أن نظمه رحمه الله نظم فقيه . والمقصود الإفادة ، وهي حاصلة على كل حال ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد سلك هذه الطريقة جماعة من العلماء الصلحاء أعني عدم تحسين النظم إذ قصدُهم الجميل إيصال المعاني إلى السامع ولم يشتغلوا بحوْك الكلام على طريقة الأدباء كابن الوردي وأنظاره ، فجزى الله الجميع عن الدين خيراً . ولقد كان شيخنا مفتي مدينة فاس العلامة سيدي الشيخ محمد القصار القيسي الفاسي الغرناطي الأصل ، كثير الإصلاح لأبيات العراقي (ألفية في علوم الحديث) وكنتُ لا أحبُّ ذلك منه ، مع أن مقصده رحمه الله حسن والتسليم أسلم والله سبحانه وتعالى أعلم .

هذا كلام المقري . ونحن نسجل الفكرة الأساسية فيه ، وهي أن مايقع في نظم بعض العلماء من مآخذ ، منشأه هو التساهل الذي يحملهم عليه قصد النفع والتفهيم بأقرب الطرق وأسهل العبارات ، وليس ذلك من عجز ولا قصور والدليل على ذلك أن قائلَ هذا الكلام والملاحِظَ على النظم المَعْنِيَّ بالأمر ، أي ألفيةِ العراقي ، هو نفسُه من أكبر الفقهاء وألمع الأدباء ، وهو الذي ألّف لنا أعظم موسوعة عن الأندلس ، وأدبها وعلمائها وشعرائها أعني كتاب نفح الطيب ، وشعرُه ونثرُه من الطبقة الممتازة ، وله نظم تعليمي مشهور في غاية الجودة ، ومنه أرجوزته المعروفة في علم الكلام المسماة باضاءة الدُّجُنَّة في عقيدة أهل السنَّة . ولا نطيل في التعريف به فالمقري قد طبقت شهرته المغرب والمشرق عالماً وأديباً ومؤرخاً للأدب العربي معتمَداً عند جميع الباحثين . ومع هذه المكانة الأدبية التي له فهو يتسامح مع الحافظ العراقي ويرى عدم التعلق بما في نظمه من لِينٍ ، لأن قصد النفع سوَّغ له ذلك ، وإن كان هو لايرتكبه ، وهذا ما يجْعلُنا نتحفَّظ بازاء قوله في العراقي « على أن نظمه رحمه الله نظم فقيه » إذ هو يتناقض مع الفكرة الأساسية التي سجلناها عليه ، وأول ما ينتقِضُ بنظمه هو ؛ الذي لا تتنزّل عليه تلك الكلمة ولا يقبل هو أن تقال فيه مع أنه من جملة الفقهاء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ودليل آخر يُؤْخَذ من كلام المقري ، وهو عناية شيخه الإمام القصار باصلاح الأبيات الضعيفة في ألفية الاصطلاح للعراقي . فهذا فقيه كبير وعالم شهير لا تخفى عليه علل النظم التي دخلت بعض أبيات الألفية الشهيرة ويحاول إصلاحها ، وما ذلك إلا لتمكنه من صناعة الشعر واختلاف نظره عن نظر العراقي في مسألة التساهل في قواعد النظم ، وإن كان نظماً تعليمياً فليس الفقهاء بإطلاق ممن يُقرُّون هذا النظر ويأخذون به ، فالحكم عليهم بعين الجمْع هو من الخطأ الذي قصدنا إلى تلافيه في هذا البحث .

وإذا كان المقري معروفاً لدى عامة المشتغلين بالبحوث العلمية والأدبية فان القصار هو شيخه وشيخ العلماء المغاربة في عصره ، بل إن مُترجميه يُحلُّونه بشيخ الأعصار والأمصار ، وقد تجاوزت شهرته في زمنه حدود بلاده ، فيُحكى أن الشيخ عبد الواحد ابن عاشر لما حج ومر في طريقه بمصر سأله الشيخ عبد الله الدنوشري من علماء مصر ، عن شيوخه فسمَّى له منهم الإمام القصار فقال الدنوشري في مدحه :

قد حاك شقَّاتِ العلوم أئمةٌ وكَسَوْا بها بالفضل من هو عار

رقَّت حواشيها ، ورقَّ طرازُها لكنها تحتاج للقصار

وهذا شعر جيد يشتمل على تورية مليحة ، وهو مما يقوله فقيه في فقيه ، ويُحسِّن موقعَ هذه التورية ، العِلْمُ بأن أسانيد المغاربة في العلوم كلها تدور على القصار ، فهو من المجددين لشباب العلم والمطرزين لحلته الناصعة البياض .

وعلى مقامه العلمي هذا كان له باع في الأدب وشعر حسن جميل ، ومنه الأبيات التي يقولها في الحض على زيارة الوالدين بعد موتهما ، وهي الأبيات التي ادعاها كثير من الشعراء ونصها :

زُرْ والديْك وقف على قبريْهما فكأنني بك قد نقلتَ اليهما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لو كنت حيث هما وكانا بالبقا زارا كَ حبواً لا على قدميهما
أنسيتَ عهدَهما عشية أسكنا دار البلى وسكنتَ في داريهما
ما كان ذنبهما إليك وإنما منحاك محضَ الود من نفسيهما
كانا إذا ما أبصرا بك علةً جزعا لما تشكو وشقَّ عليهما
كانا إذا سمعا أنينك أسبلا دميهما أسفاً على خديهما
وتمنَّيا لو صادفا لك راحة بجميع ما يحويه ملكُ يديهما
فلتلحقنَّهما غداً أو بعده حتماً كما لحقا هما أبويهما
ولتندمنَّ على فعالك مثلما ندما هما أيضاً على فعليهما
بُشراك ان قدَّمتَ فعلاً صالحا وقضيتَ بعض الحق من حقيهما
وقرأت من آي الكتاب بقدر ما تسطيعهُ وبعثتَ ذاك اليهما
فاحفظْ بنيَّ وصيتي واعمل بها فعسى تنال الفوز من بريهما

ولا أحتاج أن أنبه على مافي هذه الأبيات من عاطفة شريفة وشعور نبيل زيادة على متانة حوكها وحُسن صياغتها. ومن قوله محذراً من بعض المَهامّ ذات المسؤولية الثقيلة وإن كانت في ظاهرها مما يُرغَب فيه :

تسعٌ أبَى منها أولو الأحلام والهمم السنية
إلاّ بحال ضرورة تدعو لها مَعْ حسن نية
وهي الشهادة والوَسا طة والحكومة في القضية
وكذا الإمامة والوديعة والتعرض للوصية
ثم الاجابة للطعا م وللولائم والهدية
فسد الزمانُ وأهله إلا القليلَ من البرية

وهو شعر تظهر عليه مسحة العلم مما يتضمنه من الورع وعلو الهمة والتحري في الحكم ووزن الكلام ، فإنَّ الاستثناء في البيت الثاني والشطر الأخير إنما هو من تثبُّت العلماء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن نظمه التعليمي هذا البيت السائر :

الإستِوَا والوجهُ والعينُ ويدْ صفاتُ أو فَوِّضْ أو اوِّلْ ماوَرَدْ

فجمع في بيت مفرد أمثلةَ المُتشابه ومذاهبَ المسلمين بازائه من السلَف والخلَف وقولِ الأشعري إنه صفة. وهذا أمر يدل على مقدرة تامة وملكة راسخة ، ومَن كان بهذه المثابة ويصحح الخطأ في نظم العراقي لا يُقال في شعره أنه نظم فقيه . .

فهؤلاء ثلاثة فقهاء ، اثنان منهم كما رأينا فوقَ النقد ، وواحد محمول على التساهل لمقصد شريف ، فكيف يُحكم بالثلث على الثلثين حتى مع التسليم بحَجْجُوجيَّة هذا الثلث ، وما رأيناه في باب النظم التعليمي يدفَعُ ذلك .

هذا ومن اللطائف التي يحسُن إيرادُها هنا أن الصلاح الصَّفَدي أنشد في شرحه للامية العجم ، وهو يمثل للشِّعر الذي أتى على أسلوب الفقهاء هذه الأبيات لأبي نواس :

فاخَرَتْ كلَّ شراب فسمَتْ رتبةً ليس يُضاهيها شراب
لا تُماريك على تحريمها انتقُلْ ماحُرِّمتْ طال الخطاب
حُرِّمت، ماحرِّمتْ، بل حرمتْ جاء في التنزيل نهيٌ واجتناب
قال هل أنتم ؟ فقلنا نحن لا ! وسكتْنا كلُّنا واستَدَّ باب

ثم عقب عليها بقوله : « كان يقال : أبو نواس فقيه غلب عليه الشعر ، والشافعي شاعر غلب عليه الفقه . . والشافعي والخليل بن أحمد وأبو بكر ابن دُريد ممدودون من العلماء الشعراء » .

ولا أدري مدى صحة هذه المقالة بالنسبة إلى فقه أبي نواس بالخصوص ، ولكني أفهمُ منها الإعجاب ببراعة أبي نواس في استخدامه لجَدل الفقهاء في أبياته الرائعة ، وأعجبُ بحسن رأي الصفدي ، وهو الأديب الضليع في عدم مجافاة الفقه الأدب ، وأن الفقهاء والعلماء يكونون شعراء بلغاء ، ولا يُخيلّ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فقههم وعلمهم بقيمة أدبهم .. ويحملني هذا أيضاً على إيراد تعليقه على أبيات للعلامة الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد مما مثّل به في هذا الصدد وهي :

كم ليلةٍ فيك وصلنا السُّرى ... لا نعرف الغمْضَ ولا نستريحْ
واختلف الأصحابُ ماذا الذي ... يُزيل من شكواهم أو يُريحْ
فقيل لي تعريسُهم ساعةً ... وقلتُ بل ذكرُك وهو الصحيحْ

وهذا نص التعليق : « قلت انظر إلى هذا النظم ما ألطف تركيب ألفاظه وأحلاه ، وكونه استعمل طريق الفقهاء في البحث في ذكر اختلاف الأصحاب ، وانه قيل كذا وقيل كذا ، وقلت كذا وهو الصحيح ، وكأنه إمامُ الحرَميْن ، وقد ألقى درساً في مسألة فيها خلاف بين الأصحاب ، وقد رجّح ما رآه هو عنده من الدليل ، وما رأيتُ أحسن من هذا بينما هو يصف أحوالهم في السرى ومَشاقّهم في التعب وتشاورهم فيما بينهم ، وما اشار به كل منهم في إزالة ما حصل لهم من العَناء ، إذا به قد برز من بينهم برأي أدخل فيه ذكر الممدوح ونص على تصحيحه فكأنه في حلقة الدرس وقد شرع في مسألة خلافية . ويحرُم هذا النظم على غير الشيخ تقي الدين .

فلم تكُ تصلـــحُ إلاّ له ... ولم يكُ يصلح إلاّ لهـــا

وما أحقه لو أنشد قول الأرجاني :

أنا أشعرُ الفقهاء غيرَ مُدافَعٍ ... في العصر ، لا بل أفقه الشعراء ...».

وبعدَ هذا وذاك يُجمِلُ الصفدي الكلام في الموضوع فيقول : « وكل من عانى النظم وغلب عليه فن من الفنون مال به إلى ذلك الفن ، وغلبت عليه قواعده واستعملها في مقاصده الشعرية وتخيلات معانيه ، وظهر على ما يَرومُه اصطلاحُ ذلك الفن وأحكامُه ، ألا ترى إلى أبي الفتح البستي ومقاطيعه المشهورة في الأدب والحكم ، كيف يغلب عليها ألفاظ المنجمين » .

وهذا هو الرأي والإنصاف في المسألة ، لا ما نقل ابن خلدون عن الشاعر أبي العباس الجزنائي الذي بَنَيْنا عليه هذا البحث ، وفتح الباب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

للطعن على أدب الفقهاء ، حتى أصبحت كلمة نظم فقيه تُقال لكل شعر نازل ، وتُنُوسِيَ كلُّ ما للفقهاء من أدب رفيع وإنتاج شعري عال ، أوردنا بعضه في الفصول المتقدمة ، وما بقي منه أكثر وأطيب . وقد سُررنا بما لقينا في كلام الأديب الصفدي من موافقة لرأينا وتأييد له ، ولذلك ختمنا به كلمتنا هذه والله الموفق .

عبد الله كنون

تصويبات لأخطاء

وقعت في المقالين اللذين يحملان رقمي ١٣ و ١٤ من هذا البحث

في الجزء الأول من المجلد الثالث والأربعين :

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٩	٤	الرعاة	الدعاة
	١٧	آية	آلة
	٢٣	ومع	مع
٤٣	٧	صاحبها	صاحبها
	١١	ان بيتي	إلا أن بيتي
	١٦	عدو	عدوه
٤٦	٦	انصفا	انتصفا
٥٠	٢٢	ويقدر	ويقدره

في الجزء الثاني من المجلد الثالث والأربعين :

٢٦٦	٤	بقهر	يقهر
	١٩	سال	ساه
٢٧٠	١٢	وللشعر	للشعر (بحذف الواو ، وذلك هو الخرم الذي أشير له في المقال)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net